اننا نستغرب كيف لا يستطيع ذلك الفيلسوف البعثي المسمى عبد الحليم خدام، وهو الذي كان وزير خارجية لسنوات طويلة، ويفترض فيه ان يكون «فهيما»، ان يدرك مدى المخاطر والاضرار التي قد تنجم عن تشدقه حول «بدعة» (كذا!) التمثيل الفلسطيني، ويتوقف عن تخرصاته في هذا الصدد.

وخلاصة القول ان النظام البعثي الحاكم في دمشق ليس سندا ولا حليفا للنضال الفلسطيني، بل انه نظام طائفي فاشي يصب نشاطه في طاحونة اعداء الاستقلال الفلسطيني: وهما اسرائيل والولايات المتحدة ـ وهو ثالثهما. وبالتالي، ينبغي التعامل معه على هذا الاساس، دون غيره. انه نظام يتحدث عن «توازن استراتيجي»، ويعمل من خلال تخلف حضاري. ولا خير في «استراتيجيته»، وكل الضرر في تخلفه.

الجغرافيا مهمة.. كالتاريخ

ان الدعوة الى اعادة النظر في الموقف الفلسطيني من سوريا، انطلاقا مما اوردناه، لا بد وان تثير استنكارا لدى اولئك الذين تتلمذوا على الشعارات القومية، معتبرين ان سوريا هي القوة الفاعلة، وربما الوحيدة، في المنطقة والتي لن تقوم قائمة للنضال الفلسطيني بدونها. وربما، ربما فقط، يكون هذا الموقف صحيحا في الوقت الذي تحتضن فيه سوريا فعلا النضال الفلسطيني وتسمح له بالعمل وتقدم له المعونة والتسهيلات الضرورية، ولكن عندما يتغير هذا الموقف ويصبح هم البعثو ـ سوريين السيطرة على الفلسطينيين واحتواءهم وتحجيمهم، ودفعهم الى السير على طريق الممارسات البعثية الشاذة، يتغير الوضع كثيرا. وانطلاقا من مجمل التصرفات السورية خلال العقد الاخير على الاقل، يبدو ان الوقت قد حان لتبديد الاوهام المضللة والتحرر من تحذيرها وسخفها، والكف عن اطعام انفسنا جوزا فارغا ووضع سوريا استراتيجيا ـ وهذه المرة سنتحدث نحن ايضا «استراتيجيا» ـ في مكانها الواقعي الصحيح تجاه القضية الفلسطينية. وفي هذا الصدد، لا بد من ان نعيد الى الاذهان اولى البديهيات، وهي ان سوريا لا تستطيع ان تشكل في الاوضاع السياسية الجغرافية الراهنة، وفي احسن الاحوال، الا عاملا ثانويا، لا يستطيع ان يصل ابدا الى مرتبة العامل الاول، لايجاد حل عادل للقضية الفلسطينية. وبكلمة اخرى، يمكن ان دعت الضرورة لذلك ايجاد حل بالتعاون مع الآخرين، اي مع مصر والاردن مثلا، دون موافقة سوريا، بل ورغم معارضتها. ولكن لا يمكن الوصول الى هذا الحل مع سوريا وحدها، مهما علا ضجيج تصريحاتها وتبجح مسؤوليها. وباعتقادنا ان السوريين يدركون هذا الوضع جيدا بل يحفظونه عن ظهر قلب، ويخشون اكثر ما يخشون قيام تعاون أو تحالف مصري ـ اردني ـ فلسطيني، يقفز من فوق رؤوسهم، ويسعى لحل مشكلة الشرق الاوسط بدونهم، حتى لا يقاسي كثيرا من صلفهم وغرورهم وضيق افقهم وحساباتهم الخاطئة دائما وابدا، ويستطيع بالتالي، ربما، احراز تقدم يذكر، مما قد يؤدي الى عزل النظام الحاكم وتطويقه فأفساده. ومن هنا تأتي محاولاتهم المحمومة للسيطرة على الفلسطينيين واستيعابهم، ليكونوا ورقة في ايديهم عند بحث اية تسوية لازمة الشرق الاوسط. والامر، على بساطته، يحتاج الى شيء من التوضيح.

ان مشكلة سوريا، بل نقطة ضعفها، في تعاملها مع القضية الفلسطينية، وبالتالي المشكلة السورية ـ الاسرائيلية، هي، ببساطة، جغرافية. ولكن رغم تلك «البساطة» فان هذه عقبة كأداء